المحاضرةالثانية: انضمام الجزائر للحكم العثماني عام ١٥١٨م

الظروف المحيطة بظهور الإخوة بربروس في الجزائر

كان لضعف دولة بني زيان تأثير سيئ على أوضاع الجزائر وهذا نتيجة صراع أمرائها حول السلطة وتراجع نفوذهم وانحصاره في تلمسان وضواحيها، وتشكلت على اثر انكماشها إمارات صغيرة مفككة متناحرة ،أمثال: إمارة جبل كوكو ببلاد القبائل والإمارات الحفصية بقسنطينة ونواحيها وإمارة الذواودة بالحضنة والزاب وإمارة بني جلاب بتقرت ووادي ريغ ، وإمارة بني بزناسن وفقيق بالحدود الغربية ، وإمارة الثعالبة بجزائر بني مزغنة ومتيجة . هذا فضلا عن صراعهم مع الدول المجاورة كبني مرين في المغرب وبني حفص في الشرق، واستمر هذا الوضع إلى مطلع القرن ١٦م ما شجع الأسبان على الزحف نحو المدن الساحلية الجزائرية خاصة بعد سقوط آخر معقل للمسلمين بغرناطة في يناير ١٤٩٢م، لذلك عملوا على نقل الحرب إلى بلاد المغرب خوفا من عودة المسلمين إلى الأندلس مرة أخرى. وفي المغرب الأوسط شنّ الاسبان حملات سريعة متتالية تم السيطرة على موانئه ومدنه الساحلية الواحدة تلو الأخرى حيث استولوا على المرسى الكبير عام ١٥٠٥م ثم وهران سنة ١٥٠٩م و بجاية و عنابة عام ١٥١٠م.

أما سادة مدينة الجزائر فلما علموا بسقوط بجاية، سارع كل من الشيخ سالم التومي واعيان المدينة للاستسلام للإسبان والتنازل على أكبر الجزر الصخرية لمدينة الجزائر"برج الفنار" أو(إسطفلة) الواقع في مدخل مدينة الجزائر في ٣١جانفي ١٥١٠، وبنفس الطريقة سارت دلس وشرشال .

وفي ٢٦ماي ١٥١١م ، وقّعت أيضا مستغانم ومزغران فروض الطاعة والولاء للاسبان وان يدفعوا ضرائب ومكوسا في شهر جوان من كل عام إلى الحاكم الاسباني بوهران والتعهد بإطلاق كل الأسرى المسيحيين ، و الشئ نفسه سار عليه المللك الزياني بتلمسان " أبوحمو الثالث" عام ١٥١١م، أما تنس ففضلت الخضوع لهم قبل احتلال وهران وبذلك احكم الإسبان قبضتهم على السواحل الجزائرية الشرقية والغربية.

وابتداء من عام١٥١٢م، بدأت أصداء انتصارات الإخوة بربروس وجهادهم ضد الكفار في الحوض الغربي للمتوسط تصل إلى مختلف أهالي المدن الجزائرية، خاصة محاولات الإنقاذ لبواخر المسلمين الفارين من الاضطهاد الاسباني، وظهورهم كقوة مضادة رادعة للقرصنة الأوربية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

جاء الإخوة بربروس إلى بلاد المغرب وهم أربعة "إسحاق و خير الدين وعروج ومحمد إلياس"، واستقروا في تونس بعدما استأذن عروج السلطان محمد الحفصي بان يقيموا في جزيرة جربة ، وقدم له الهدايا فأذِن له بذلك واشترط عليه أن يقدم له خمس الغنائم" لخزينة بيت المال" وأن لا يتخاصموا مع سكان المنطقة، ومنحهم موضعا في ميناء حلق الوادي يسمى جالطة تتوفر فيه الشروط المناسبة للتحصين والإقامة والمراقبة .

أما أول احتكاك للجزائريين بالإخوة بربروس كان عندما استنجد به علماء وأعيان مدينة بجاية، لما كانوا يسمعونه عن انتصاراتهم في عرض البحر وشواطئ الأندلس، وهو ما عبّر عنه المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف (م١ – ج٢) قائلا : " العلماء والأعيان من أهل بجاية يستصرخونه في إنقاذها من يد العدو طالبين استرجاعها من الاسبان...". وفعلا لبى عروج طلبهم وتوجه إلى بجاية في أوت ١٥١٢م على راس ١٢قطعة بحرية وأكثر من ١٠٠٠جندي مدعوما بفرق من أهالي منطقة بجاية وفرض عليها حصار دام أكثر من أسبوع وخلالها أصابت قذيفة مدفعية بترت ذراعه الأيسر مما اضطرهم للانسحاب والعودة إلى تونس.

بعد فشل محاولة اقتحام بجاية وإدراكه للأسباب التي تعود في الأساس إلى بُعْدِ قاعدته منها فقرر أن يغير قاعدته العسكرية من حلق الوادي إلى إحدى المدن والموانئ الجزائرية فرأى في فتح مدينة جيجل المكان المناسب لما تتوفر عليه من تحصينات طبيعية إذ تحيط بها سلسلة جبلية، فتحالف مع احمد ابن القاضي وسار الهجوم على المدينة من البحر والبر تمكنا خلاله من السيطرة على المدينة بسهولة وطرد الجنويين منها

وأسِر منهم حوالي ٦٠٠ أسيرا بالإضافة إلى غنائم متنوعة وبايعه أهلها حاكما عليهم عام١٥١٤م واتخذها مركزا لشن الهجمات على مواقع الاسبان الغزاة.

ومن مدينة جيجل باشر عروج وإخوته مواصلة نشاط الجهاد البحري وتقديم المساعدة للمسلمين الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الإسباني وتوطينهم في المدن الجزائرية الساحلية. و بالقرب من السواحل صقلية وسردينيا هاجم عروج ثلاث سفن كانت محملة بالقمح متجهة إلى اسبانيا فاستولى عليها وحصل على غنائم عديدة وعند عودته وزع تلك الغنائم على سكان مدينة جيجل وأريافها كما أرسل جزءا منها إلى السلطان العثماني " سليم الأول رفقة محي الدين رايس الذي استحسنها فأرسل بدوره إليهم الأسلحة والذخيرة.

وقد جاءت هذه المكافأة في الوقت الذي كان فيه عروج وإخوته في أمس الحاجة إليها وهم يستعدون للقيام بحمله ثانية على بجاية، بعدما استحثه شيوخ القبائل وأمير جبل كوكو" أحمد بن لقاضي" على إعادة الكرة على الإسبان.

وبدأت المحاولة الثانية لتحرير مدينة بجاية في شهر أوت ١٥١٤م بقيادة عروج وانضم إليه حوالي ٢٠ألف متطوع من الأهالي. وفرض حاصرا على المدينة قرابة ثلاثة أشهر، لكن الظروف لم تساعده مرة ثانية لأن ذخيرته نفذت من قواته لذلك طلب العون من السلطان الحفصي "مولاي محمد" لكن هذا الأخير امتنع عن تزويده بما يحتاجه من مساعدات مما اضطره للانسحاب منها بعد اسر حوالي٦٠٠ اسباني، وقبل الانسحاب احرق سفنا كانت راسية في مصب نهر الصومام على بعد ثلاثة أميال من بجاية؛ وهذا ما يؤكده المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف: " وضيق عليها الحصار، ولما اشرف على الفتح نفذ ما عنده من البارود، فكاتب السلطان الحفصي بتونس، وهو محمد بن الحسن يستمد منه البارود، فتغافل عنه، تخوفا على ملكه المشرف على الانقراض، والتقدير وراء التدابير" . وتذكر بعض الروايات استشهاد أخيه محمد إلياس أثناء الحصار أو بعده بقليل.

وفي سنة ١٥١٦م كان عروج وأخوه خير الدين يستعدان للقيام بحملة ثالثة على بجاية ولما وصلت أنباء بوفاة ملك إسبانيا فرديناند عمت الفرحة في مدينة الجزائر ورأى سكانها أن الوقت قد حان للتخلص من المعاهدة الاسبانية المذلة لذلك استنجدوا بالإخوة بربروس وطلبوا المساعدة منهم للتخلص من الوصاية الإسبانية عليهم . وحينها اجتمع الأهالي مع سالم التومي الذي قبل بدعوة الإخوة بربروس من أجل إخراج الإسبان من قلعة " البنيون" وبتشجيع من الشيخ أحمد بن القاضي أرسلوا إلى عروج رسالة يلتمسون فيها المساعدة.

وتلبية لهذا الطلب توجه عروج بقوة بحرية قوامها١٦سفينة على متنها ٥٠٠ تركي على رأسها خير الدين، وقوة برية تعدادها بثمانمائة تركي إضافة الى ٣٠٠٠ جندي من جيجل وضواحيها. اتجه عروج عبر البر مباشرة إلى شرشال وافتكها من يد قارة حسن بعد تضييق الخناق و استسلامه واعترافه بسلطة عروج على مدينة شرشال، وهناك روايات تقول انه تمّ التخلص منه.

ومن شرشال توجه عروج إلى الجزائر أين استقبله أمراء وأعيان ووجهاء المدينة وأعداد كبيرة من أهلها بحفاوة بالغة ووعدوه بالوقوف إلى جانبه. وبايعوه أميرا للجهاد ، فباشر بقصف القلعة لمدة عشرين يوما قصفا مستمرا وبدون انقطاع، لكن ضعف مدفعيته لم يتمكن من تخريب جدار القلعة مما جعل الأهالي يفقدون ثقتهم بهم.

ولما طالت إقامة عروج وأخويه بمدينة الجزائر مما ادخل في نفسية سالم التومي الحقد والغل والخوف من ضياع سلطته ومكانته بين أهله لذا دبر مع أتباعه مؤامرة ضد الأتراك للتخلص منهم، ولكن عروج تفطن لهذه المكيدة، فسارع بقتل سالم التومي داخل حمام منزله، بينما فر ابنه "يحي" إلى وهران طالبا الحماية من الاسبان.

أصبحت مدينة الجزائر بعد هذه الحادثة بدون حاكم، فأعلن عروج نفسه حاكما على الجزائر، ورفع فوق أسوارها وقلاعها راياته ذوات الألوان الأخضر والأصفر والأحمر؛ وبعدها توجه الإخوة بربروس للاستيلاء على بقية المدن الجزائرية فاستولى عروج على المدية وملیانة وتنس، في حين استولى خير الدين على مدينة دلس ونواحيها.

و في ٣٠ سبتمبر ١٥١٦ أرسل الكاردينال خمينيس قوة بحرية إلى ميناء الجزائر مؤلفة من خمسة وثلاثين سفينة، تحمل ثمانية آلاف رجل بقيادة دياغو دي فيرا ونزل بناحية باب الواد ، وحاول جنوده اختراق الأسوار والتسلل على الأطراف ولكن دفعات عروج كانت لهم بالمرصاد فأوقعت بهم الكثير من القتلى ،و بعد يومين حدثت زوبعة بحرية تلاطمت فيها سفن الاسبان ببعضها البعض مما دفع بـ "دياغو دي فيرا" بالأمر بالعودة إلى الأسطول، وفي ذلك الحين خرج عروج رفقة جنوده وهاجموا الجيش الإسباني وأنضم إليهم أعراب بنو سالم وألحقوا بهم هزيمة نكراء تكبد خلالها أكثر من ٣٠٠٠آلاف قتيل و٨٠٠ أسير، أما المراكب البحرية فقد أتلفت الامواج العاتية نصفها.

وبهذا الانتصار العظيم الذي حققته مدينة الجزائر ما دفع بمدن البليدة وملیانة والمدية وضواحيها إضافة إلى أهالي جبال القبائل للانضمام تحت لواء إمارة مدينة الجزائر الفتية.

وفي غمرة هذا الانتصار وإدراكا بأهمية توسيع مجاله توجه عروج إلى مدينة تنس في جوان ١٥١٧م رفقة أخيه خير الدين وقاما بإخضاعها بعد أن قتلا أميرها الزياني "حميد العبيد" وفرّ بقية الجنود الاسبان ممن كانوا يحمونه.

ولم يستقر بهما المقام بها حتى جاءهم وفد كبير من مدينة تلمسان يطلبون من عروج المساعدة للقضاء على السلطان أبي حمو الثالث الذي استولى على عرش إبن أخيه أبي زيان، والمتحالف مع الإسبان، كما أثقل عليهم بالضرائب. لبى عروج نداء أهالي تلمسان بكل سرور لأنه كان يتشوق لذلك بعدما ترك أخاه خير الدين على مدينة الجزائر، وأثناء توجهه إليها سلك الطريق الواقعة شرق وهران وعندما وصل إلى قلعة بني راشد وضع عليها حامية تضم ستمائه مقاتل تحت قيادة أخيه إسحاق للحفاظ على طريق رجوعه.

لما بلغ نبأ سير عروج إلى تلمسان اعترضت طريقه قوات أبي حمو واستطاع عروج تمزيقها فهرب أبو حمو الثالث إلى فاس ثم إلى الحامية الإسبانية بوهران، ولما وصل عروج إلى تلمسان فتحوا له الأبواب واستقبلوه بترحاب.، فسارع الى تنصّب أبا زيان أميرًا

على تلمسان لكنه سرعان ما أعلن تمرده عليه مما أجبره على قتله وأعلن نفسه حاكما على تلمسان.

و في هذه الأثناء كان أبا حمو قد جمع بعض أشتات قواته الممزقة ودعمته الحامية الإسبانية بوهران بقوة عسكرية بلغ عددها عشرة ألاف جندي هذا إضافة إلى جموع الأعراب الذين انظموا إليه، وساروا نحو قلعة بني راشد في شهر يناير ١٥١٨م للاستيلاء عليها وتمكنوا منها وقتلوا الحامية التركية بما فيها إسحاق بن يعقوب وواصلوا السير إلى تلمسان حيث فرضوا عليها حصارا دام ستة أشهر سقطت خلالها تلمسان في يد الإسبان. مما اضطر عروج للفرار رفقة جنوده حاملا معه كنوز المدينة إلا أن الإسبان لحقوا به ودارت معركة بينهم بالوادي المالح بنواحي عين تيموشنت استشهد خلالها عروج وهو يدافع عن نفسه مثل الأسد في ماي ١٥١٨م، بعد ما وضع أسس الدولة الجزائرية الحديثة.

خلف خير الدين أخاه عروج ووجد نفسه في وضعية حرجة وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل والخارج، زيادة على الخطر الإسباني الذي يحدق به بعدما تمكن من القضاء على أخيه في تلمسان ، وتمرّد عليه أحمد بن القاضي في جبل كوكو، وخرجت عن سلطته مدن شرشال وتنس أما بنو زيان فقد تواصل تواطؤهم مع الإسبان ضده .

إلحاق الجزائر وارتباطها بالحكم العثماني عام ١٥١٨م:

أمام الظروف الصعبة السابقة الذكر قرّر خير الدين بربروس مغادرة الجزائر والعودة إلى اسطنبول عاصمة الخلافة للحصول على أسطول جديد يساعده على متابعة جهاده، لكن أعيان مدينة الجزائر وعقلاؤها ألحوا عليه بالبقاء في المدينة ويذكر ابن ميمون الجزائري في هذا المضمار على لسانهم قائلا: " ... فقالوا كلهم له أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك فالله في أمة سيدنا محمد " ص" فإن الله يسألك عنهم...". فرد خير الدين عليهم:" ..أنا بقيت في بلادكم منفردا غريبا لا ناصر لي ولا معين، وقد

رأيتم ما وقع من سلطان تلمسان وما أجلب به علينا من النصارى.."، ثم عرض عليهم فكرة إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية حتى تجد نوعا من الحماية الدولية خاصة وأن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) قد بلغ أوج قوتة وعزته آنذاك فقد استولى على الشام ومصر وضم إليه مكة والمدينة وأضاف لنفسه لقب الخليفة.

تقبل أهل المدينة لهذا الرأي، وأرسل خير الدين رسالة إلى السلطان سليم باسم الأعيان والفقهاء والأمة والتجار والأمناء وكافة سكان الجزائر العامرة، تعرب عن رغبتهم في الدخول تحت طاعته ويتعهدون بالدعاء له على منابر خطب الجمعة وضرب السكة باسمه مع وفد بقيادة الحاج الحسين .

لم تطل استجابة السلطان العثماني سليم الأول لطلب أهالي مدينة الجزائر بالموافقة فقام بإرسال ألفين من الإنكشاريين الأتراك، وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية ودعمهم بأربعة ألاف متطوع ، وفي الوقت نفسه أرسل إلى حكام تونس وتلمسان يحذرهم من الاعتداء على الجزائر، كما عيّن خير الدين بربروس أول حاكم على الجزائر بلقب بايلرباي أي حاكم الحكام، أو أمير الأمراء .

وفي اوت١٥١٩م هاجمت حملة اسبانية قوامها ٤٠سفينة تحمل على ظهرها اكثر من ٥٠٠٠من المقاتلين الأشداء بقيادة نائب ملك صقلية "هيقو مونكاد " ولكنها عادت كسابقاتها منكسرة مهزومة . وأمام هذه الانتصارات تسربت الغيرة والفتن في نفوس البعض من أمثال ابن القاضي امير كوكو المتحالف مع السلطان محمد الحفصي بتونس فكادت هذه المؤامرة أن تقضي على خيرالدين الذي أنسحب إلى قاعدته القديمة جيجل وبقي فيها حوالي ست سنوات من ١٥٢١-١٥٢٧م استغلها في إعادة بناء أسطولها والقيام بهجمات على السواحل الأوربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل: إيطاليا، اسبانيا وفرنسا ثم أرسل إليه السلطان سليمان القانوني والأرجح أنه راسله في سنة ١٥٢٥م أن يتوقف عن مهاجمة مراكب الفرنسيين وشواطئهم ليحول خير الدين كل قواده إلى شواطئ اسبانيا لينتقم بذلك لمسلمي غرناطة.

كما قام بالاستيلاء على المدن المتبقية من الجزائر كالقل وقسنطينة عام ١٥٢١ وعنابة ١٥٢٢ والحضنة والقبائل ومتيجة عام ١٥٢٥ وفي عام ١٥٢٧ عاد إلى مدينة الجزائر وذلك بطلب من أهلها ، الذين عانوا من جور ابن القاضي.

وبمساعدة سلطان بني عباس عبد العزيز تم استرجاع مدينة الجزائر بعدما شن حملة عسكرية ضّد "برج الفنار" المعروف بقلعة البنيون" استغرقت ستين يوما من القتال ليتمكن من انتزاعها نهائيا من يدّ الإسبان عام ١٥٢٩م، وقام بتحويلها إلى ميناء بحري لحماية السفن الجزائرية الراسية على السواحل من العواصف والرياح الشمالية الغربية.

لكن الظاهر أن الإسبان لم يفشلوا من الهزيمة السابقة حيث قاموا بهجوم آخر على مدينة شرشال في شهر يوليو سنة ١٥٣١م لكنهم لم يستطيعوا مقاومة المدفعية الجزائرية مما أرغمهم على الانسحاب.

وبعودة أمير الأمراء خيرالدين إلى مدينة الجزائر ليشرع في ووضع وبناء أسس للدولة الجزائرية الحديثة ويسير على نهجه خلفائه من بعده .